أجوب الدنيا حافياً

obeikan.com

obeikan.com

أجوب الدنيا حافياً

مجموعة قصصية

ملاك رزق

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلي

د. إبراهيم الجهيني

شكراً أستاذي...

obeikan.com

مقدمة

لا يوجد أقسي علي القلب من رؤية فتاة ترتدي فستان أبيض اللون. تجلس علي طاولة في ركن باهت الأضاءة تتناول الطعام وحدها، ورنات ملعقتها الصغيرة بالطبق عالية. كنت أود أن أقتطع جزء من عملي بالمكان وأذهب إليها وأقدم لها وردة، وأخبرها كم هي رائعة الجمال، لو ابتسمت لي سأخبرها أيضا كم أن الله يحبها لأنه خلقها امرأة.. لكني لم أفعل. خرجت هي بعدها بخمس دقائق وصدي صوت أصطكاك معلقتها بالطبق لايزال يصدح بالمكان.

بيوت تفوح منها رائحة العرق

لم يتذوق قلبه منذ بضعة أيام، دخل غرفته، وأغلق باب العالم خلفه..

جلس على السرير، يحاول أستعادة جزء من نفسه..

أنار ذكرياته..

رسم شجرة علي الحائط، وإنتظر أن تثمر..

كانت هنالك امرأة تنظر من داخله..

طلب رفقتها..

obeikan.com

أعطته يدها، جذبها من خلف ضلوعه، طمع فيها أكثر!

أعطته المزيد، لم يكتف..

طلب منها رقصة شرقية، اطاعته فرحة. يعرف أن النساء يشعرن بنشوة غامضة عندما ينظر الرجل إلي مفاتنها.

الزوايا المنبعجة من جسدها، تتمايل، يمينا ويسارا. رقصت هذه المرة بعنف، أهتزت ارادفها، وأرتجت، قدمت الورك اليمين للأمام مع ثني خصرها والتفت حول نفسها لفة كاملة، تعبت، جلست بجانبه سعيدة..

أشعل سيجارة، وأمتص مقدمتها بشفتيه، ثم أطلق زفرة محملة ببعض الرياح البيضاء التي كادت تحرق صدره..

سقطت قطرة مطر من عينيه فجأة، علي زوجته الجالسة بجانبه، فأغرقتها..

سقطت دموعه أكثر فمسحت أثارها من جانبه..

أفاق الزوج، ودفع بجسمه للأمام، وضع وجهه بين كفوف يديه..

تكالبت الدموع عليه، تحاول أن تغرقه في لجة الماضي، لا ير طوق للنجاة.

قد تعب من مواصلة الرحلة دون زوجته..

اختفت زوجته منذ عام، وبعد البحث وأبلاغ الشرطة..

أنتهي محضر البلاغ بكلمة "مفقودة" ولم يستدل علي مكانها، ونظرة غير مريحة من ضابط التحقيق للزوج.

البيت، ملمسه خشن، يفوح منه الوحدة وظنون كثيرة..

يتذكر أخر فترة كانت زوجتة بالبيت..

كان وجهها كامد، لا ينطق بحياة.. عيناها زائغة وجسدها أصابه الذبول، كان يعرف علتها.

تزوجا عن حب...

مرت عليهما سبع سنوات ولم يرزقا بعد بطفل، ذهبا لأكثر من طبيب، تشخيص الحالة والسبب.. الزوج لاينجب.

في باديء الأمر، حاولت التخفيف عنه، قالت له: أنت تكفيني، أنت ابني..

عمل علي أسعادها، ورد جميلها، تذكر وعده لها في أول الزواج:

- سأفعل المستحيل لاسعادك مهما تطلب مني ذلك.

تذكر أيضاً .. في فترة الخطوبة، كيف كانا يتخيلان زواجهما.. وأيضا أسماء الأطفال.

تردد علي مسامعه في حسم: لو ولد اسميه كريم، بنت اسميها جنة..

ولكن ذلك لم يحدث..

مرت السنوات جافة، أنتشر الملل في البيت، وتسرب الأهمال لجدرانه. جوانب النافذة الخشبية دائما مواربة، لا تفتح علي مصراعيها كما كانت، كانت تتحاشي نظرات، وكلمات الصبر من الجيران، لم تستطع أن تدخل مثلثات ضوء الشمس والظل لبيتها بعد الأن. حاول اقناعها بتبني طفل، لم ترتاح للفكرة.

حتي جاء يوم..

لم يجدها، بحث عنها طويلا، سأل عند الجميع، ولم يستدل علي معلومة تنفعه!

openkan.com

ملابسها، حاجياتها، متعلقاتها الشخصية، كلها موجودة..

جاءت التوقعات والظنون، تحليلا لغيابها، أنها ماتت، تحت عجلات سيارة مجهولة، أو فقدت الذاكرة فجأة، هناك أيضا من تهامس داخل بيوت الحارة وقال:

الزوج هو من تخلص منها وأخفي جثتها علي سطح المنزل..

هناك من قال أيضا: فوزي عجلاتي الحارة، قد أنتقم من الزوج وقتل زوجته بعد أن أغتصبها وقد رجح هذا الظن لاختفاءه وظهوره علي فترات في الحارة، الا أنه لم يظهر ثانية ..

فوزي العجلاتي، دميم الشكل والرائحة، شاب صغير السن، جامح الرغبة، كان يعاكسها في كل مرة، وقد عرف الزوج، وذهب إليه وكاد ان يتسبب له في عاهة مستديمة لولا نجاح الجيران في تهدئته قليلا..

إلي أن جاء ذلك اليوم..

فجر يوم أصفر، والحارة لا تزال نائمة، والبيوت المتلاصقة، التي تفوح منها رائحة عرق لم يجف بعد، وركن نفايات يأخذ مكانه في مؤخرتها - النفايات تفضح الجميع وتظهر عاداتهم- وكلاب تنتشر علي أطراف

الحارة، أضاءه ضعيفة تنداح من عمود نور وحيدا يقف عاريا يواجه الظلام بمفرده..

كل ذلك بدا معتادا، الا من قدوم خطوات خائفة متثاقلة صعدت بيت الزوج الذي أختفت زوجته..

فتح الزوج الباب علي أثر خبطات خفيفة..

وجدها..

الزوجة تقف أمامه، وقفا دقيقة صمت، مقيدان الروح إلي أن تراخت روحيهما قليلا، ألقت نفسها داخله،واستلقت علي صدره..

فستانها الزهري، وقصة شعرها، لم يتغيرا عن أخر مرة، تغير فقط عطرها وجسدها الهزيل دون لحم يذكر..

عصرها في حضنه، الصمت داخل الحضن ..مهابة

بادرته بالأجابة، لم يسألها! قالت: أغمي عليَّ في الطريق وأنا ذاهبة للسوق لشراء احتياجات المنزل، ولم أنتبه لنفسي الا اليوم، وعدت بعدها مسرعة..

كانت الأجابة منظمة، والكلمات مرتبة..

كان بجانب قدميها سلة صغيرة بها طفل رضيع نائم، وعندما سألها قالت: وجدته

ثم تهادت مرة أخري بين ضلوعه كحمامة وديعة وأكملت: الله قد أرسله لنا كتعويض.. عن عدم أنجابك!

أبتسم أبتسامة هزيلة..

صمت قليلا..

تذكر وعده لها في بداية زواجهما، ثم أغلق الباب.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

أيام الجوع

أبي...

أتذكر يوماً ما، عندما ذهب معي في أول يوم للجامعة، كنت محتلة يده، أشعر بأمان داخل كفه وأود لو أنام وأستريح. كان يقول لي دائما:

- طفلتي تحركي وأنتي منتصبة الكتفين

أبتسم وأهز رأسي لأسفل أتأبط ذراعه وألتصق به أكثر.

أخطو المسافات معه، نخرج من باب المنزل الذي يقبع بتنهد تحت وطأة العشوائية وتغيرات الزمن، البيت الذي يصاب جسده بالضمور، تحسه كأنه يشعر بحكة دائما، تراه يتأفف من زبالات رأسه والأسطح المجاورة.

obeikan.com

أبي يترحم في أحاديثه علي قاهرة الخمسينيات.

كان يشبه البيت صامدا أمام تغيرات الزمن والناس، رأينا ونحن نعبر شارع رئيسي تتفرع منه حارتنا، أمام جزارة الحاج محمود، سائل أحمر لزج يملأ المكان، وبقع منه تنتشر،وأطفال تضع يديها في هذا السائل وتطبع به كفوفها علي حوائط المنازل، أسال عن السبب، يجيب: يعتقدون أن هذا الفعل حماية لبيوتهم، حاولت تتبع الفهم ، فأكمل: طقس يهودي قديم تركوه اليهود قبل أن يهربوا من مصر قديما. نظرت للأطفال الذين يداوموا علي هذا الفعل، سألت في عقلي، كيف يمكن أن تصمد العادات الموروثة كل هذه الأعوام بين الناس؟ وكيف نكرم عادات أعدائنا!

أكملنا الطريق... أرتدي الفستان البمبي عندما أخرج معه، كان يحب هذا اللون، يحبه من عشقه لسعاد حسني التي أرتبطت معظم فساتينها بهذا اللون. عندما كان يظهر فيلم للسندريلا بالتلفاز، كان يفرض الصمت الأجباري داخل البيت، أمي تغتاظ أكثر، مرة نزعت مفتاح التيار الكهربي وكادت أن تتسبب في حرق البيت، أبي قال لها:

- ليس الماس الكهربي هو من سيتسبب في حرقنا بل غيرتك، لقد تجاوزت سن المعاش يا امراة .
- سأغير عليك حتي وانت في قبرك!

كانت جملة والدتي صادمة أعقبها الصمت. أراد تسميتي سعاد عند ولادتي، لكن أمي رفضت، فأطلق علي أسم" اميرة"، لم تعرف أمي أنه أسم سعاد حسني داخل أحد أفلامها.

أعداد الشباب في أزدياد كل يوم عند نواصي الشوارع، العدد يتزايد يوما بعد يوم، كأنهم يظهرون فجأة من العدم ويقبعون بالزوايا، لا يتحركون ولا يتناقصون، ألحظ نظراتهم علي جسدي، وشعري المنسدل بأنتظام علي كتفي، لا أحد ينظر في الأعين، أنظر انا والأحظ ، أنظر أبي وهو يفرد صدره يداري بجسده ظلالي، يسرع الخطي ويعطيهم نظرات شرسة.

يقبض علي كف يدي بضراوة وضرورة أقوي من المطلوب

لا يزال الشباب ي ح د ق و ن!

فستاني يجذبهم، نوعي يجذبهم، والجوع يجذبهم.. للنظر.

نتوجه إلي وسيلة النقل التي تقلنا للجامعة، أشعر بقلق يعتريه عندما نحاط بأي وسيلة مواصلات، عربة المترو خانقة، لا يوجد بها مكان للوقوف ننزلق نحن الاثنين داخلها كعلبة كبريت يتراص أعوادها بجانب بعض، شيخ جالس ومندمج في قراءة المصحف بصوت عال، طويل اللحية، وطويل القامة. جلباب قصير، ناصع البياض ورأس مغطاة بطاقية نفس اللون .وسيدة عجوزة تقاوم التعب تقف أمامه متكئة علي حديد الباب، من ضمن أناس واقفين، ينداح منهم الملل، الصمت وكثير من العرق.

أبي يريدني ان أتسلق فوق صدره، أطمئنه قليلا بابتسامة تخرج محشورة من فكي الذي يتحرك بصعوبة وسط ملامحي، وقطرات العرق تنز مني، قطرات عرقه تتساقط هو الأخر، أتلقاها بيدي، لا أدعها تسقط أكثر من ذلك!

حان الوقت..

اللحظة التي ينشدها الجميع، وقت النزول من العربة، جاءت المحطة المبتغاة، حركني بذراعيه، ووضعني خلفه كحائط صد ضد القادم، المجهول!

أمسك بيدي..

وصـــل المتـــرو لمحطتـــه التاليـــة وتوقـــف.. جمهور كثير علي الرصيف يقف منتظر فتح الباب، والأنقضاض بداخل العربة، جمهور داخل العربة يفكر في كيفية الخروج وأبي من ضمنهم، أستعد الجميع..

وجاءت اللحظة الفارقة

فتح الباب، كان طموح ورغبة الداخلين أقوي من الخارجين وأكثرهم عددا، نجحوا في الدخول جميعهم ، وأرباك خططنا، تملص القليل ونجح في الخروج، وجدت نفسي أبتعد بجسدي عن أبي ولم يصبح أمامي، انزلقت أصابعي من يده بطيئا وحبات العرق تساعد هذا الأنزلاق، حاول أبي القبض علي أصابعي الصغيرة، لكن فعل موج الناس كان أقوي، أجد نفسي أتراجع وأبي بحكم الدفع وجد نفسه بالخارج، دفعته الرياح، كقشة هشة تواجه مصيرها، قاومت الموج، واجهت التحامات الناس، تنشقت أجسادهم، عرقهم، تحت أذرعهم، دخل فمي رزاذ أفواهم وهم يسبوا الجميع، المجتمع، البلد، الدين، والشيخ لا يزال مندمج في القراءة بصوته العذب. والمرأة العجوز التي كانت تقف أمامه لا أراها. هوة أغرق بها ولا طوق نجاة.

أطراف أصابع تمتد لأنحاء جسدي، أنامل علي حافتها أبر، تلضم المهانة بالسكوت.. كنعجة وقعت بين

مجموعة ذئاب وغاب راعيها، تتحسسني كحشرات صغيرة صعدت لجسدي وكبر حجمها مع الوقت. بحث عني خلفه علي الرصيف، لم يجدني، سمع صفارة أعقبها غلق الباب، رأني وانا لا ازل قابعة في العربة، أحاول النجاة، الباب في طريقه للاقفال، وأنا علي بعد أقل من متر ولا سبيل للخروج، دون تفكير، ألقي بنفسه ناحية الباب وتوسطه مقاوما، ومد ذراعيه بين البابين، أغلق الباب علي ذراعيه وصدرت أنة صغيرة ضاع صداها في الزحام، لم يتحرك أحد لمساعدته، ضاق الخناق علي ذراعه القصير المترهل، كرشه يصعد ويهبط من المجهود.

لا تزال الأبر تنغرز في جسدي الضعيف! أقف عاجزة. والشيخ لا يزال يمسك المصحف، ولكنه هذه المرة رفع رأسه للمشهد وهو لايزال يقرأ، يدير نظره بسرعة مرة أخري للمصحف الشريف.

صيحات الناس مستنكرة فعلة ابي، وصفته بالمتخلف. كان هذا التحرك من ابي كفيل بفتح الأبواب مرة أخري، شدني برقة من ذراعي، وأصبحنا خارج العربة وظهرت رسمة ضحكة جميلة علي محياه ، قال:
أنا موجود هنا لا تخاف

ظل قابع خارج الجامعة حتي أنتهيت من يومي، ووخزات الأبر تدمي ظهري، أدرايها حتي لا يراها، وذهبنا للبيت داخل تاكسي.

باع كل مدخراته بعد ذلك وأشتر لي سيارة صغيرة محدودة التكلفة، كان يصر علي أيصالي ومجيئي كل يوم.

في الشهور الأخيرة أصبح حبيس المنزل باراداته، ساكن، قابع ، نحاول أجباره علي الخروج، تظهر علي ملامحه علامات الحزن، ينزوي في ركن من أركان الغرفة، ينظر للشارع من النافذة ويهز رأسه يمينا وشمالا.. يتمتم بلسان ثقيل وحروف متباعدة: لا أريد الخروج.

وها أنا اليوم هنا بينكم، أقول خطابي هذا، وبجانبي صورة أبي مزدانة بشريط أسود علي جانبها الأيمن، في يوم ذكراه الأربعين، أرتدي الفستان البمبي الذي كان يحبه، وأقف أتلقي العزاء بكتفين منتصبين، وقد فتحت وصيته هذا اليوم كما أوصي، وجدت داخل الوصية تذكرة سفر.. تذكرة سفر خارج البلاد.

❊ ❊ ❊

أجوب الدنيا حافيا

رسالة من العالم الأخر

.
..
لا بأس أمي لا ألومك.
لا بأس أبي لا ألومك.
لا بأس أيها العالم لا ألومك.
لا بأس أيتها السماء لا ألومك.
الآن فقط ..
قد شفيت.

obeikan.com

نعم كان يوم أخر جديد في أرض الشقاء، أستيقظ منتشيا من رائحة النشادر التي تفوح من جسدي، أسف علي هذا التعبير سأصوغها مرة أخري..

أسف علي رائحة النشادر التي تفوح من هذه الكتلة المشوهة..

أود فقط ان أعتذر وأعتذر..

أسف سيدي، لانك مرغم أن تراني أمامك، أسف جاري لهذا السبب، أسف للأشخاص الذين يسيرون في الشارع ويروننني، هم لم يقترفوا أي ذنب حتى تعاقبهم السماء برؤيتي!

أسف أيضا يا من تقرأ كلماتي..

أنهض من فراشي الصغير تحت سيارة قديمة في جراج يتآكل، لشارع عجوز، لمدينة تحتضر.

الجميع يخاف مني إلا الكلاب. سمعت شخص بعد أن رآني، قال أن رؤيتي تصيبه بالغثيان. مثلي عندما يكبرون قليلا يوضعون داخل الجراج، لا أعرف لماذا الجراج؟ هل لأنه تحت الأرض! ليس لدي فكرة.

جاء بي أبي وأنا في سن الرابعة إلي هنا، وتركني لصاحب الجراج، تمسكت بأصابعه الكبيرة ولساني لم يتحرك من مكانه، قال لي وهو يفلت اصابعي من يده: سأعود لا تقلق. مرت خمس وعشرون عاما ولم يأت، يبدو أني أغضبته، لم أقصد ان أصدر صوتا وأنا أتناول طعامي في ذلك اليوم، كان الطعام لذيذا، أتذكر مذاقه، وأتذكر دموع أمي، وهي تنظر لي، هل أغضبتهم، أود ان أعتذر لهما فقط.

الجراج يقبع بهدوء تحت مبني قديم مكون من ثلاثة طوابق، يتوسط مباني أكثر ضخامة وأتساع داخل شارع رئيسي بوسط المدينة. حوائطه الرمادية الباهتة، وتشققات الزمن تظهر عليه وسط أشعة الشمس القليلة التي تقتحم المكان عنوة من خلال أنعكاسات مرايا الشركات المحيطة بالمبني القديم، وتلقي بظلالها داخل الجراج علي سيارات مختلفة الطراز، كل مجموعة سيارات باهظة الثمن، ومتشابهة الطراز تتجمع بجانب بعض ، تشعر أن هناك رابط يربطهم، يبتعدون عن سيارات الأجرة الذين يصطفون هم الآخرون بجانب بعض، يقتربون ويتلامسون.

لا يدعني عم صابر صاحب الجراج ، أنظف السيارات باهظة الثمن، يتركني أقوم بهذا العمل مع سيارات الأجرة وأيضا التوكتوك، بعد مغادرة الزبائن حتي لا يراني

أحد ويذهب مسرعا بعيدا عني

أحب تنظيف التوكتوك وقد تعلمت قيادته من مراقبتي لصاحبه. أظل أعمل هكذا حتي نهاية اليوم، وأذهب للنوم أسفل أحد سيارات النصف نقل. دون أن أحادث أحد أو أحد يحادثني، مجرد ظلال السيارات تسامرني ليلا

أصبحت أشتهي الحديث مع أي شخص، الكلاب لا تتكلم، والسيارات دائما علي عجلة من أمرها.

ذهبت لتوكتوك لم يسأل عليه صاحبه منذ شهور، أمسكت بعجلة القيادة وخرجت منذ سنين من الجراج، دون معرفة عم صابر..

الأرض صلبة، متعرجة، مطبات ترفعني وتهبط بي، والهواء يلامس بعض من بقايا شعري، ويدغدغ بشرتي الحارة، أتفادي دخول الشوارع الضيقة لوجود أطفال تلعب، أخاف أن يروني ، أشفق عليهم،وأخاف من رد فعلهم، الأطفال لا تعرف ردود أفعالها.

أرتـدي وشـاحا قـديما أغطـي بـه رأسـي و، كثيـر مـن ملامحي..

أظـل أتحـرك لسـاعات، ولا اصـطاد راكبـا واحـدا، هـل يهربون من الركوب أم أنـا.. أتفادي وجودي مع أحدهم، منفردين داخل التوكتوك، لا أحتمل هذا الأحساس.

الوحــدة تقتلنــي، أريــد التحــدث، أخــراج الكلمــات، الحروف، أستخدام لساني..

لا أحد يراني..

هل أحد يراني!

أريد الصراخ..

أخر مرة نظرت للمرآة كانت من سبع أعوام، الخدود المترهلـة تشـعر لأول وهلـة وأنـت تراهـا كأنـك تطـالع شخصـا عجـوزا، كرمشـة الجلـد، و يـداي تحتـوي علـي ثماني أصابع كأرجل البط الذي يربيه عم صـابر داخل الجراج، رقبـة منتفخـة، وعين واحـدة، نعم عين واحدة، والأخري مصمدة غير موجودة.. مكانها طمي بشري .

دارت الليالي والأيام، حتي وجدت الحل لوحدتي!

استيقظت مبكرا، أخذت حماما منذ زمنا طويلاً. اتجهت أمام الجراج ونظرت للشارع الرئيسي الذي يضمه، وقفت في منتصف الطريق الشمس الذهبية تلمع بقوة والسيارات تمر بقوة..

اتجهت بخطوات وئيدة للأسفلت الصلب، شعرت بسخونتها تحت أقدامي الحافية، ووقفت في المنتصف، فردت ذراعي بالعرض.. واستنشقت السماء.. بعد أن تحررت من كل الأغطية.

خرج عم صابر من الجراج مسرعا علي أصوات بعض المارة الخائفين..

امرأة تقف بالشرفة تصرخ..

لأول مرة الكل يلتفت ويراني..

يطلق عم صابر صرخة باسمي، يتبعه صرخات كل هؤلاء خائفين عليّ بعد أن كانوا خائفين مني. وينادون بصوت عال..

م

ح

م

و

د

أسمع اسمي، أشعر بنشوة ورعشة حضن بكر، تلف جسدي..

مرت خمس ثوان، وأنا منتشي..

جاءت سيارة نقل محملة بالرمال ودهستني.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

ألا يوجد بالشيطان شيئا صالحا؟

أنا الإنسان المعاقب، المطرود من البيت الكبير، أجر أذيال الخيبة ورائي، وزوجتي المذنبة تحدق بالأرض السمراء.. علي جسدي لباس يقيدني، لا أحتمله.. أخرج للمجهول، الشمس حمراء، تشوي سحب السماء، تحيلها للون رمادي، والريح ملتهبة تضربني بقوة، تشكل دوائر تحاصرنا، والأتربة في هياج من حولنا، العالم المنفي إليه واسع جدا، والصحراء بيضاء، وروائح تنهش أنفي، تجففني وتملاني غبارا لا أطيقه، أقدامي تغرس في الرمال، أجذبها بشدة لتخطو الخطوة الأخري من الطريق وتعاني.

obeikan.com

هل تخلي عني أبي وتركني!؟

ظهر أمامي ابن الذوات، الابن البكر لأسرتنا..

جاءني بوجهه الأملس، صانع الثورة الأولي..

يطل علي بفحيح صوته، وأنفاسه المشتعلة، يهمس لي: لم يعد لنا الا بعض ياأخي الصغير

ألوح له بيدي في الهواء ممتعضا من جملته، أريد أن أعنفه، ولكن طعم المرارة يحيق حلقي، لا أستطيع التكلم.

يكمل:

ليس ذنبك أنك طلبت الحرية، أنها داخلك أخي.

أسحب زوجتي التي لم تزل مشدوهة، عيناها الواسعتين وأنفها المستقيم، بشرتها التي لا تخلو من شعر.

عيناها قد ذبلتا منذ وقوع العصيان.

شعر رأسها الأسود المسترسل علي كتفيها، تفردهما علي كتفيها العاريين عندما أنظر لها،عيناي تذهب لأجزاء جسدها المختلفة عني، أطيل النظر فيهما، وكأني أراها لأول مرة..

لم أعد أنا كما كنت في الماضي..

ولم تعد هي الاخري كذلك.

هناك شيء تغير، لن تعود الأمور كما كانت أبدا، وإلي الابد!

والسبب تفاحة، وملاك ساقط يريد الأنتقام

أو

غواية من ضلعي، خطيتي للمعرفة!

أطل مرة أخري وجاءني، أنا تسليته في وحدته..

سألته مباشرة وانا أحاول رؤية الطريق الشاسع بجباله وهضابه، وعلي مقربة منه نهر واسع أحاول الوصول إليه للسكني والأستقرار.

قال: أحاول ألهامك، والبحث عن الخلود مثل أبينا،

ضاقت عيناه الواسعة، وفرد ذراعيه القويين، يحاول أن يظلل علي جسدينا المتعبين وعرق يتساقط علي أنفي ويأخذ طريقه لشفتاي بطعمه اللاذع، يكمل:

obeikan.com

نحن متساويين يا أخي بعد أن غضب علينا أبونا.

نحن متساويين!

أجبته مستنكرا، ويد زوجتي تتعرق في يدي، تنفلت قليلا..

تهبط الشمس وتعانق صفحة المياة وتغرق داخلها، أقدامي تستريح قليلا من الرمال وتتحرك علي أرض سوداء لينة قليلا..

تلكزني حواء بكلتا يديها، ثم تشير إلي مكان بأعلي الهضبة المنحنية بنتوءات متعرجة، وأشعة القرص الليلي تضيف مناطق ضوء وظلام متفرقة عليها.. مجموعة ظبي، تجري مسرعة، وكأن هناك أحد يطاردها.

هل أخرجهم أبي لأنهم يذكرونه بي!

أتذكر هذه اللحظات قبل أن أطرد، ألعب مع الظبية الصغيرة، والأسد يجلس تحت أقدامي، ومهر أبيض يستعرض بقوائمه العاليه، يدور ويلف في مرح من

حولنا، عبير زهرة ياسمين تطل برأسها، تذوب مع رائحة نباتات الأقحوان الذهبية..

قطع تفكيري بنهنه مبالغ فيها، أظهرت أمتعاضي وقررت الأسراع في خطواتي، التي بدأت تتحرك ببطء، معلنة تعب لم أعتده من قبل..

قال لي : سؤال أخير..

الأ يوجد بالشيطان شيئا صالحا؟

أبتسمت قليلا بما لا يتماشي مع موقفي وهيئتي الحالية

أبتسم هو الأخر وفرد ذراعيه بشكل مستقيم، وأمال رأسه ناحية الشمال مع أتجاه الرياح، ورفع كتفيه قليلا، وأنتظر متشوقا للأجابة..
أجبت: التمرد علي الواقع فضيلتك، ولعنتك الكبري أيضاً
ضحك..
ثم
تركني
وذهب!

❊ ❊ ❊

الغرفة المغلقة

"هل الملائكة يعزفون علي أوتار ألته؟ موسيقاه من السماء" ..

أبي يردد هذه المقولة دائما عندما يستمع لبعض مقطوعات عمر خيرت..

كان يقول لي بعد كل معركة يخوضها مع أمي..

- مجرد فنجان من القهوة وبعض الموسيقي تكفي لإعادة متعة الحياة المفقودة مع أمك.

obeikan.com

كان توقيت الساعة السابعة مساءاً في منزلنا يمثل لغزا لي أنا وأمي، أبي يدخل لغرفة مكتبه المزدانة بذكرياته المعلقة في كل جانب ومشغل أسطوانات عتيد وسماعة صوت متوسطة الحجم وجهاز لاب توب. كان يغلق باب غرفته عليه بالساعات، ورغم أن أمي قوية الشخصية إلا أنها لم تستطع معرفة السبب أو حثه بإنهاء هذه العادة الغريبة.

راودتني فكرة شيطانية وأخبرت بها أمي رغم ترددي في بادئ الأمر، لكني وجدت مساعدة منها وتحفز لتنفيذ هذه الحيلة لمعرفة ماذا يفعل أبي داخل هذه الغرفة، تسللت داخل الغرفة قبل أن يدخل ويغلقها واختبأت، وشاهدت أعظم مشهد في حياتي، رأيت أبي ذو الشارب الكث والعيون المحفورة في وجهه والتجاعيد المنحوتة بقوة تعكس أوجاع الزمان وعلي أصوات موسيقي عمر خيرت يتراقص ويتمايل بهدوء وجسده الضخم بصخوره المتعرجة يتحرك بأنسابية وكأن هذه المقطوعة صنعت خصيصا له.

أفخاذه المترهلة وذراعيه المكتنزة تتجول بحرية في الهواء صعودا وهبوطا، جسده يرسم دوائر حوله نفسه وعيناه غائبة عن الوعي، تحدق في كل مكان، شعرت لوهلة أنه رآني، عيناه نظرت مباشرة نحوي، لم يبدو عليه دهشة أو ملمح يدل علي اكتشافه لي وأكمل

الـرقص، ظـل هكـذا يـرقص لبضـع سـاعات دون أن يتعب، خرجت من الغرفة بعد خروجه، لم أقل لأمي أبدا مـاذا كـان يفعـل داخـل الغرفـة، مـات بعـد هـذا المشـهد بأسبوع في غرفته ، وجاء تشخيص الوفاة "مـات متـأثرا بأزمـة قلبيـة مفاجئـة. مـات وعلـي شفتيه ابتسـامة كبيـرة، أوصـي فـي ورقـة.. يُكتـب علـي قبـره "حفـرت قلبـي، وتركت موسيقي ورقصة وبعض الذكريات".

دخلـت بعـدها غرفتـه ولـم أخـرج إلا بعـد بضـع سـاعات! أيقنت بعدها أنه رآني وهو يرقص.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

الحمير لا تذهب بعيدا

يتمني أن يأخذ أستراحة من نفسه، يكسر المرايا، يعطي ظهره للشمس، وينزاح في ركن مظلم داخل روحه، الدنيا غير كافية للأختفاء..

بهيج في أول العقد الرابع من رحلته، وجهه المتجهم يرسم أشكال السخرية بين معارفه، عندما يقارنوه باسمه..

جسمه الضخم، وجلبابه المتكوم عند كرشه، يكشف عن ساقين بفرو أسود خشن، وجه أسمر كرغيف خبز البندر، يرتكز علي انف ضخمة تناسب وجهه الممتليء، وبثور تتفرق بعشوائية علي السطح.

obeikan.com

يستيقظ مبكرا كعادة ساكنين الريف، ينظر لجمالات زوجته التي تنام باريحية، تصدر أصواتا من بطنها، تتقلب ببطء علي السرير الضعيف، تحرك أعمدته النحاسية. ينظر متأملا: من هذه المرأة!

يتساءل كيف تحولت خلال عقد ونصف من الزمان (لفرن الخبيز) مثل الذي يقبع في أسفل الدار..

أنفاسها العطنة تدفعه للقيام، يخفي دهشته، كيف كان مولعا بها في الماضي!

يقوم متثاقلا من سريره بعد ليلة أمس، التي أتم فيها وظيفته السريرية مع جمالات من ملل، عرق، ونخزات متفق عليها. تنتشي هي وتنام، ويظل هو مستيقظا.

ينظر للسقف الأسمنتي، يتوقع أن يفتح علي مصرعيه، يصطاد سحابة بخيط، وتسحبه معها، ولكن ذلك لا يحدث..

يلبس جلبابه، ويقبض عمامته بشدة علي رأسه لكي لا تهرب رأسه بعيدا، يهبط درجات السلم، يحصيهم، خمس وأربعين سلمة.

يدخل(الزريبة) الراكنة بجوار الدار، يركب حمارته البيضاء التي تنتظره، يجر جاموسته، وهو يسمع

خوارها، تبدو في حالة ملل كصاحبها. يتحركون الثلاثة من جثة الدار الهامدة، وسط باقي البيوت الجديدة التي تحاصره، وأعمدة النور المضاءة في اول الصباح..

في طريقهم للغيط الأصفر، علي طرف ترعة مشقوقة داخل جسد الطريق الرمادي.

الشمس كريمة هذا الصباح..

بهيج بين الشمس والأرض الترابية، لا يلقي أو يرد التحية بين الناس، لا يعترف بهم!

مجرد ظلال لغيرهم..

يتحرك منغمسا في فكرة ما، قد سيطرت عليه منذ زمن ليس بالبعيد

- اييه الجديد!

يتباطيء الحمار ويطاطيء رأسه لعشب أخضر علي حافة الطريق الترابي، يلكزه بهيج في جنبيه، نهيق الحمار يصل لمداه ولكن يكمل، يراقب بهيج البلد من فوق الحمار، نفس المشاهد، نفس الأفعال، يختفي أشخاص ويظهر اشخاص جدد يكملوا التسلسل الألهي!

الحمار يعرف طريقه، تتبعه الجاموسه وبهيج مجرد أكمال لصورة خفية تكمل المشهد.

يصل الثلاثة لغيطه الصغير المكون من ثلاثة قراريط، ثلاثة قراريط تلتحف باعواد القصب، وشجرة جميز عجوز تقف منتصبة في المكان، موجودة من أيام جده، ثم أباه..

يكمل بهيج عمله الروتيني المعتاد..

يربط الجاموسة بوتد صغير أسفل شجرة عقيمة تشبه روحه، وترك الحمار دون رباط، فالحمير لا تذهب بعيدا...

جلس يستظل تحت الشجرة..

مر عليه من بعيد الحاج سيد، ملوحا بيده من داخل سيارته السوداء حديثة الطراز، مخلفة عفرة وراءها، ويجلس في المقعد الخلفي أطفاله الثلاثه، وبجانبه زوجته ثريا هانم..

يمصمص بهيج شفتيه، ويرجع رقبته للخلف ليستند علي جذع الشجرة ويضحك ضحكة صامتة: موسم أنتخابات المجلس بينه قرب..

يكبس عليه حوده ميكانيكي ألة الري، يلقي عليه السلام ثم يجلس معه، مقرفصا علي الأرض. يضع بهيج براد الشاي المعتاد علي " كانون" مكون من أربع طوبات حمراء، علي هيئة قاعدة مفتوحة، وأسياخ حديد تناسب حجم الطوب، موضوعه بالأعلي، ويستخدم بقايا أخشاب وذرة كوقود..

يحكي حودة، ذو الجسم القصير، الشعر المائل للحمرة، والوجه الأصفر موضوعاته اليومية. حفظ بهيج حكاوي حودة عن دنك المعيشة، ثم التطرق لجارته المطلقة "صفية".

يحاول حودة أقناع بهيج، أنها تغريه، يقول حودة: عتشوفني علي سطح الدار، تخرج بقميصها الشفاف المفتوح من فوق الصدر..

يطيل حودة الميكانيكي حكاويه عن صفية وجسدها، يشرب معه الشاي الحبر، ويتركه وهو يكرر علي مسامعه في شيء من التباهي: الليلة ليلتي يامعلم..

حودة كل حياته تنحصر بين ماكينة الري وجسد صفية!

رفع بهيج رأسه للشجرة العقيمة، رأي أوراقها تتساقط..

يحلم أن يطير مع الريح، يعرف أن أوراق الشجر الساقطة هي التي تطير، أعد نفسه للذبول والسقوط من نفسه، حتي يطير ويتحرر..

قرر أن يجد شيء يعيش لأجله

ويجيب علي سؤاله الذي أكل عقله!

ذهب للبيت وجد جمالات تتهيىء أمام المراة، وتفرد شعرها علي صدرها العاري، ضاجعها، ثم ذهب للغيط في اليوم التالي برفقة حماره وجاموسته بعد أن أحصي درجات السلم الخمس وأربعين سلمة.

❊ ❊ ❊

البيوت الطينية

قريتنا في أواخر سبعينيات القرن الماضي..

كانت البيوت الطينية طيبة، لا تطلب شيء لنفسها..

تكتف بلمبة جاز وطبلية صغيرة وبعض شماعات الملابس..

الشارع الذي يصطف علي جانبيه البيوت.. ترابي، ضيق غير متسع، حتي يتقاربوا، متلاصقين، ليشعروا بالدفء والونس، الخوف الذي يلف البلاد علي مدي عصورها علمهم بضرورة التقارب، والأحتماء ببعضهم البعض..

obeikan.com

سفر رجال القرية للعمل بدول الخليج زاد الخوف، وأيضا التقارب..

البلد كأنها شقت من الجهات الأربع، الفرح والخوف متلازمين لا يفترقان.

البيوت الطينية علي عهدها تحافظ علي الساكنين لحين عودة مالكيها..

بنيت من طمي الأنسان فلذلك هي قريبة من روحه، تشعر به، هل كانت في الماضي إنسان تحول لتراب بعد موته ثم لطوبة لينة داخل البيت الطيني.. يشاهد أحفاده في صمت..

قالت جدتي وهي تسعل بشدة علي فراشها المصنوع من سرير حديدي قريب للأرض، به أربع أعمدة ترتفع وتغطي بملاءة شفافة بيضاء تسمي" السحارة "

وحصيرة بالية لا تزال تحمل روائح الماضي، تفترش الأرض.

قالت وهي تنازع مرضها الأخير: حفيدي وكليتاي

أجبت: نعم جدتي

قالت وهي تنظر من نافذة الشباك:

- لماذا الليل أسود
- طول عمره أسود ياجدتي

اشاحت بوجهها بعيدا عن السواد اللامتناهي خارج الشباك، نظرت لشيء هناك غير مرئى..

- كان الليل في صباي واسعا، منيرا، نتجمع نحن البنات ونجلس تحت القمر، نشكل دائرة ونتسامر علي صحباتنا غير الموجودات، كانت النميمة هي لعبتنا المفضلة، وكنا ننتظر القمر والليل لنسكر بحكاوينا..

تحكي لنا جمالات وهي أكبرنا سنا عن فتي المدينة الذي جاء ليقضي أجازته السنوية عند خاله العمدة عطا، كانت تترنم بوسامته، وتحلف لنا مئات المرات أنه غمز لها عندما رأها وهي تغسل الملابس بمياه الترعة التي تطل علي بيتها، وعندما شهقنا وضحكنا في خجل وخبث أكملت: ونظر لجسمي وركبتاي العارية، وضعنا أيدينا علي افواهنا بحركة لا أرادية، و سألتها خديجة : ماذا فعلتي يابيه.

خديجة في عمرنا ولكنها تزوجت منذ فترة قاربت علي السنة من رجل يكبرها بكثير، وهو وقتها كان بالخليج يعمل وتركها تصارع قليل من الملل، وكثير من الوحدة..

أجابت جمالات: رفعت الجلابية أكثر حتي كاد أن ينكفيء علي وجهه.. ضحكنا جميعا

كنا صغارا، فرحين..

تجلس منصتة تماما، قليلة الكلام، دميانة، الحياء يغشيها، ننظر لها ونضحك أكثر..

أنصبت حكاوينا علي التغييرات التي تحدث لأجسادنا، نستقي المعلومات من ما نعرفه أو نسمعه، كانت معلومات معظمها خطأ، وكانت خديجة بحكم أنها متزوجة، تقوم بسرد المعلومات عن طمينا بل زادت الكلام عن علاقتها الخاصة بزوجها، كانت تصفه بالفحل الغبي، كنا نكتم أنفاسنا، وتسري بأجسادنا رعشة خفيفة غامضة..

كانت دميانة تزعق فينا بعدم التحدث في هذه الأمور، وتهددنا أنها لن تأت لتجلس معنا، لكننا لم نبطل الكلام، ولم تغادرنا هي..

نقنقة الضفادع ليلا وخوار البقر صباحا، والساقية التي تقبع في الغيط تنتظر ثورها القاني، وشمس حارقة تمتطي ظهورنا، كانت مظاهر يومنا النهاري المعتاد، نتجمع مابين السادسه للثامنة مساءا، وبعد الثامنة تتفق القرية علي النوم، الكل يشحذ عيناه للأحلام.

ظلت الليالي والأيام تتوالي، وتتواري بحكاوينا..

لم تظهر خديجة لفترة قاربت علي الشهر، ذهبنا أنا وجمالات ودميانة إلي بيتها، ولكن لم يكن أحد موجود بالبيت الطيني، قالت دميانة، أشعر أن أحد بالداخل.. لم نهتم لكلامها وذهبنا ونحن أكثر قلقا علي خديجة..

عرفنا فيما بعد إن زوجها رجع من عمله بالخليج..

رأيناها صدفة، لم نتعرف عليها عندما رأيناها..

كنا نتجول أنا ودميانة في السوق البعيد عن البلدة بضع الكيلومترات، اليوم هو يوم الخميس وهو يوم مرتبط بشراء اللحوم والطبخ، حتي في الطعام أتفقت القرية علي يوم الخميس لتتشارك..

نادت علينا أمراة متشحة بالسواد، ترتدي النقاب، لم تتحرك دميانة من مكانها وذهبت أنا إليها، عندما سمعت صوتها وهي تسألني عن حالي، ذهلت وقلت: خديجة.

أجابت بأيماء رأسها لأسفل، صمتنا بضع ثوان، وأشرت لدميانة بالمجيء، أقتربت دميانة حذرة، وعندما عرفت إنها خديجة لم تعلق، ولم نسأل عن سبب هذا التغيير..

أكملنا أنا ودميانة وجمالات جلساتنا المسائية ولكن دون خديجة، ولم نقوي عن التحدث عنها، يبدو ساعتها أننا لم نستوعب هذا الزي الجديد الذي ظهرت به خديجة في البلدة..كنا جميعنا نرتدي الأيشاربات، وفساتين ريفية، تضيق عند الكتفين وتتزن عند الخصر وتنزل واسعة وتتوقف قبل القدمين بقليل.

بدأت البلدة تتشح بالفرح مجموعة من رجالها قد عادوا من السفر، محملين بالهدايا والدراهم وبعض العادات..

كنا علي حافة الست عشر من عمرنا..

البيوت الطينية تباعدت عن بعضها ووزع بينها بيوت من الطوب الأحمر، وبيوت الطوب الأحمر دائما متطلبة، طبقة أسمنتية تغطي جدرانها وأرضيتها. ودهان ملون بطبقة جيرية يزين البيت.

تجمعنا نحن الثلاثة..

جاءت خديجة للجلوس معنا، كنا نتوقع، أنها ستكون صامتة، شاردة، خجولة، توقعاتنا ذهبت أدراج الريح،

خلعت نقابها أمامنا وظهر وجهها أكثر عرضة للضحك، تتكلم بسرعة وتحرك أيديها بسرعة، شعرنا أن هناك شيء تغير فيها، شيء تداريه، كانت تأخذ دميانة بعيدا عنا أنا وجمالات ويتحدثون بجدية، تارة خديجة تبكي، وتارة دميانة تهب من مكانها وكأن عقرب قد لدغها من كلمات خديجة، وتارات كثيرة، ترتمي خديجة في حضنها، كنا نتسأل أنا

وجمالات، ماذا يدور بينهما؟ ولكننا لم نعرف الأجابة وقتها!

ظهرت أكثر علي الطريق سيدات متشحات بالسواد، منقبات من أهل القرية، لا يتعرف عليهم بسهولة أحد من أهل القرية، عاشوا في عزلة، وكانت العزلة تتمدد أكثر وأكثر داخل القرية. والبيوت تختلف وتتباعد..

مرة كنا نمشي أنا وجمالات ودميانة نثرثر كعادتنا، وفجأة تتوقف دميانة وتذهب غاضبة لشاب كان يرتدي قميص وبنطال، أقتربت مني جمالات وأشارت علي الشاب وقالت: هذا هو الشاب الذي حدثتكم عنه منذ شهور قليلة، الشاب الذي غمز لي!

يظهر من طريقة كلام دميانة معه وأشارات يدها أنها غاضبة، وتحذره من شيء معين!

تساءلنا مرة أخري ما علاقة هذا الشاب القادم من البندر بدميانة؟، ولماذا هي غاضبة منه هكذا؟

لم تجيب، وأكتفت بالصمت.

أستمرت جلساتنا..

جمالات بزغت أنوثتها لحد لا يمكن السكوت عليه من شباب القرية، تقدم لخطبتها محمود بن الحلاق، وحلاق القرية له عدة وظائف فهو الحلاق، التمرجي، خاتن الأطفال، وحكيم القرية. وقد أعد محمود نفسه لهذه المهنة بعد أنهاء خدمته بالجيش.

جاء لخطبتها مع عائلته، في اليوم المتفق عليه، أعدت الوليمة الكبيرة، وتسابقنا نحن البنات لأستراق النظر لمحمود، كان شاب طويل وأسمر بلون حبات تراب الأرض الطيبة، لفحة الشمس تظهر علي جبينه العريض، وجلبابه الأبيض الطويل مع الشال الرمادي وعمامة مربوطة بالتزام علي رأسه.

جاء الحديث بعد الوليمة العامرة، للأتفاق علي ترتيبات الزواج،وضعت جمالات يدها علي صدرها، وكأن هناك شيء خفي يقلقها..

طلب والدها أن يكون مهرها مثل مهر بنت عمها، كانت جملته غريبة وجديدة، لم يفهمها والد محمود وطلب المزيد من الأيضاح، فأكمل والد جمالات، أن بن الحاج شهاوي عائد من الخليج حديثا وقد تقدم لخطبة بنت عم جمالات وقدم مهر ألف جنيه، وسيبني لها بيت من الطوب الأحمر المغطي بطبقة أسمنتية ودهان ملون..

سافر محمود لأحد دول الخليج ليعمل "فواعلي" يحمل الطوب الأحمر علي ظهره ليبني بيوت أعلي من بيوت القرية وترك مهنة حكيم القرية.

مرت الأيام رتيبة علي القرية ونسمات الهواء الساخنة التي كانت تلفحها في فصل هاتور، محملة بندي قليل من الزرع الأخضر الذي ينتشر في الجانب الشرقي من القرية قد بدا ضعيفا، وحل بدلا منه أتربة فضية ورمال صفراء، تأخذ مكانها بدلا من الطين الأخضر..

أخذنا أبي، أنا وأمي للمعايدة علي أسرة دميانة، كنا نذهب في السنة مرتين، عيد الميلاد وعيد القيامة، وكانوا يردون الزيارة في أعيادنا..

كانوا في كل مرة يعيدون القصة التي حدثت لي في صغري..

عندما ذهبت مع دميانة للكنيسة الصغيرة القريبة من مدخل القرية، ذهبت عندما عرفت أنهم سيوزعون هدايا العيد علي الأطفال بمناسبة العيد، فذهبت واخذت الهدية، والتي كانت عبارة عن عروسة وصورة دينية لأحد قديسيهم، ضحك الأستاذ عاطف عندما رأني، وحاول أخذ الصورة ولكني بكيت لأنها كانت صورة ملونة، فتركها.

أستبد بي النوم، نمت تحت دكة من الدكك المتراصة في قاعة الكنيسة والكل مضي بما فيهم دميانة، وأكتشف أهلي غيابي فظلوا يبحثوا عني طوال الليل، وأخبرتهم دميانة بموضوع الهدية والكنيسة، فذهب أهلي وأهل دميانة وكثير من أهل القرية، وفتح قسيس الكنيسة الباب، ووجدوني نائمة بسلام محتضنة العروسة والصورة الصغيرة، وبعد ما أخذوني في أحضانهم، ودموعهم بللتني، ظلت القرية تتندر بحكايتي لمدة خمس شهور حتي ميعاد حلول حصاد القمح، وصار قسيس الكنيسة قريب لأبي يتندران بهذه الحكاية كلما يتقابلان.

جاء يوم زفاف جمالات علي محمود، القرية أزدانت بالأنوار، وفروع الزينة، ورجال القرية يستعرضون عضلاتهم في لعبة التحطيب علي أنغام الناي والمزمار، وفارس علي مهرة بيضاء يتموجان علي اصوات الطبل والمزمار.

نجلس نحن البنات في فناء البيت المبني علي الطوب الأحمر، وبقايا أثار من حوائط طينية، ندهن أيدينا وكعوب أقدامنا بالحنة، لم تظهر خديجة، وجه دميانة الجالسة بجانبي يظهر عليه العبوس!

طارت الأخبار سريعا وطافت القرية بعد ليلة الزفاف، سقطت خديجة من شرفة بيتها، سقطت من الدور الثاني، وحدثت لها كسور مضاعفة في الكتف الأيمن والقدمين وبعض الجروح القطعية الغير مبررة في الوجة، كان الغموض يلف هذه الحادثة، وكانت دميانة لا تتركها خلال فترة تواجد خديجة بالمستشفي،وبعدها ايضا، كانت دموع خديجة لا تنشف، وجاء خبر طلاقها من زوجها بعد الحادثة مباشرة، وتركت خديجة وأهلها القرية وسافروا للأسكندرية في منتصف الليل دون أن يعرف أحد!

الأشاعات تناثرت هنا وهناك، ولكن السبب لم يعرف أبدا، لم يتبقي من خديجة غير ذكراها وضحكاتها الرنانة وبضع جوابات كانت ترسلها لدميانة من مكانها، انقطعت مع مرور الوقت، لم تظهر خديجة بالقرية من بعدها، وأيضا لم يظهر الشاب الذي غمز بعينيه لجمالات..

ظل بيت عائلة خديجة الطيني ثابتا في مكانه، حتي تحول لخرابة كبيرة نسجت حوله حكايات العفاريت، وربطوا سبب رحيل خديجة وأسرتها بالبييت المسكون.

أنتشرت البيوت الاسمنتية، وأكلت البيوت الطينية، كانت االبيوت الأسمنتية عطشة، لاتكتفي، البلاط غطي الارض الترابية، ولمبات النيون،ومراوح الأسقف..

تباعدت البيوت عن بعضها، وتعالت بيوت عن بيوت، وأرتفعت أطوالها..

أنكمش بيت عائلة دميانة وأقربائها..

وأختلف الزي وظهرت العباءات السوداء والنقاب بكثافة، وصارت البنات الصغيرة ترتديه، والذقون الصغيرة " الدوجلاس، انتشرت علي وجوه الرجال العائدين من السفر، وصار للزوج أكثر من زوجة، ونبت مسجد كبير أمام الكنيسة مباشرة، وأنكمش بيت الكنيسة، وأنكمشت معهم بيوت أهلها، وظهرت علي أجسادهم وأذرعهم أيضا رموزهم الخاصة..

تعددت الصور والرموز الدينية بصورة غير مسبوقة، وعلقت علي جدران البيوت علي الجانبين، وظهرت الاختلافات بين البيوت..

وتباعدت ..

وتعالت..

وأنعزلت..

ولم نعد نزور أسرة دميانة في الأعياد، فقد ظهرت فتاوي مع البيوت الأسمنتية القادمة من الخليج، ولمبات النيون والمراوح الكهربائية تقول: لا يجب تهنئة المسيحيين.

قسمت القرية لمناطق..

تجمعت بيوت النصاري والتفت حول بعضها..

أطفال القرية الصغار ورثوا من البيوت الحديثة الاختلاف، الأنعزال، والتباعد..

لم نعد نجلس نحن الأربعة كالسابق، جلسات النميمة، لم نورثها للجيل الذي يلينا كما أستلمناها من الجيل الذي يسبقنا..

ولم أعد أري دميانة كثيرا..

سمعت ان أكليلها "زواجها" الليلة علي عريس، سيأخذها ويعيشون في مصر..

كنا في جلساتنا القديمة أنا ودميانة، قد تواعدنا علي وجودي بجانبها في هذا اليوم..

ذهبت إليها رغم ممانعة البيوت..

دخلت الكنيسة، تغيرت كثيرا عن السابق، لم أتذكر علي وجه التحديد المكان الذي نمت فيه عندما كنت طفلة..

المعازيم تملأ الكنيسة، والألحان القبطية بمرافقة أصوات الدف الصغيرة والناقوس تزيدها بهجة.

دميانة بفستانها الأبيض، والطرحة الشفافة التي تكشف معظم شعرها، ويتخلله بعض اللالىء. تقف بجوار عريسها في مقدمة الكنيسة، والقسيس يتلو عليهم نذور الزواج:

" يجب عليك أيها العريس المبارك أن تتسلم زوجتك في هذه الساعة المباركة بنية خالصة ونفس طاهرة وقلب سليم، وتجتهد فيما يعود لصالحها وتكون حنون عليها وتسرع إلى ما يسر قلبها.

وأنتِ أيتها الابنة المباركة العروس السعيدة، فيجب عليك أن تكرميه وتهابيه ولا تخالفي رأيه، بل زيدي في طاعته على ما أوصى به أضعافًا. "

وجدت جمالات وهي مرتدية حجابها الجديد، تربت علي كتفي من الخلف، أحتضنا بعضنا البعض، وبكينا سويا.

غادرت دميانة مع زوجها..

راسلتنا قليلا، وكعادة المبتعدين، يبقون علي الوفاء قليلا ثم تشغلهم الحياة وينسون..

أمر كل يوم من أمام المكان الذي كنا نجلس فيها، لا أري المكان، ولا اري أربعتنا..

نبت بيت أخر مرتفع، أربعة أدوار وعلي سطحه جهاز أستقبال كبير علي هيئة طبق أبيض، يقال عليه"الدش"

جاءني عريس، كان أكبر مني كثيرا، شعره الأبيض وجلابيته البيضاء وسبحته السوداء التي يتناقلها بين اصابعه، ولكن ابي لم يوافق، كان العريس متزوجا من أثنين ويطلبني كزوجة ثالثة، ولكن أبي رفض.

إلي أن جاء جدك، تزوجني وقضينا معظم عمرنا في القرية، كان صاحب أرض يزرعها، وأنا أساعده..

وجاء أبيك وعمتك لحياتنا، وكبروا، وأخذونا من القرية للمدينة بسبب تعليمهم وأشغالهم وتزوجوا هنا..

ولم نخالفهم كثيرا في طلبهم هذا، القرية لم تعد تخصنا، معالمها أندثرت،

والبيوت أصبحت ملونة..

حاولت الحفاظ علي لون بيتي ولكن ريح الزمن الجديد كان أقوي.

الترعة تم ردمها وأختفت حواديت العفاريت، وظهر الطريق السريع، ولم يعد أحد يتذكر البيوت الطينية

ودارت الدنيا علي نفسها، وجرت الأيام منها..

ووجدنا أن القرية لن تختلف كثيرا عن المدينة وغربتها..

جدك توفي منذ خمس أعوام، وها انا اليوم أجلي يقترب.

كانت جدتي تتفتت وتتحول لتراب، بعد يومين ماتت ودفنت في القرية كما أرادت، كان أكثر ما يحزنها، أنها لن تستطيع التحول لبيت طيني كما تمنت. دفنت بجانب أصدقائها الثلاثة كما أوصت كل واحدة منهم في وصيتها الأخيرة، يقال أن صدي أصواتهم وضحكات خديجة المميزة كانت تسمع بالليل كثيرا.

ماذا لو

يجلس الإستاذ كريم علي أحد المقاهي القريبة من "وسط البلد"، بطن القاهرة المنتفخ، ونبضها الدائم..

..يأت كل يوم بعد مغيب الشمس، يجلس علي كرسيه المفضل بجانب نافذة خشبية قديمة تطل علي شارع طلعت حرب.

تتراكم بضائع الباعة الجائلين علي صدور المحلات، تخنقهم، وتستنزف من رزقهم، ولكن لا مجال للمناقشة، يبادر الباعة بدفع مبالغ نقدية زهيدة، لأصحاب المحلات، لتركهم، والرضاء بالأمر الواقع..

obeikan.com

البنوك، السينمات، المراهقين الذين يصطفون أمامها، محلات الملابس، فساتين الزفاف، تقف أمامها الفتيات، وعيونهم تشهد لمعة ذهبية.

كل ذلك كان يلهب قلبه حماسا للمشاهدة، يعطيه لذة المشاهدة مع ظله الكسول.

ينظر الإستاذ كريم باهتمام لكل رواد المقهي، أصبحت عادة لديه أن يتطلع للوجوه، لم يتطلع ذلك اليوم للشارع، والمارة، كانت لديه مهمة خاصة، لم ينتبه للجرسون وهو يضع كوب النعناع الساخن علي منضدته، وبجانبه، كوب أخر من المياه المزدانة أيضا بورقة نعناع داخله.

اليوم قد رجع مبكرا من عمله، في مصلحة الشهر العقاري، التي تبعد بضع شوارع عن مكان سكنه، وأيضا مكان المقهي القابع فيه.

قد تسلم عمله منذ عام ونصف، بعد وفاة والده، تحت بند أبناء العاملين، وكان الوقت مناسب فقد تخرج للتو، وحان وقت العمل..

تأمل وجهين لفتاتين في مقتبل العمر، كان المطلوب منه أن يفاضل بينهما، ليختار منهما عروسة له، يتزوجها، كان صديقه الوحيد قد رشحهما له.

تجلس كل واحدة منهما علي طرفي المكان، الأولي التي كانت تجلس في مقدمة المقهي، بيضاء، تتلون عيناها بالموج، وجسدها نحيل بعض الشيء، طويلة، توجد نقطة صغيرة سوداء قريبة من أنفها، تزيدها بريقاً، ترتدي بنطال جينز واسع، وبلوزة خضراء، ولا تحمل حقيبة يد، تحرك أصابعها بين خصلات شعرها، الذي يميل للون كستنائي فاتح.

الفتاة الاخري.. علي النقيض منها، سمراء وعيناها واسعتين، يزينهما كحل ليل مدلهم، عيون بلون عسل باهت، قسمات وجهها مريحة، وأسنان ناصعة البياض، تحرص بين الفينة والاخري أن تظهرهما علي هيئة أبتسامة، ترتدي تنورة بيضاء، تنتهي أعلي ركبتيها تظهر بشرتها الفاتحة بعض الشيء عن بشرة وجهها.

فكر لنفسه..

ماذا لو تزوج الفتاة البيضاء؟ يمكن.. أن يسبب هذا القرار له المتاعب، جمالها سيجذب الجميع، وعاد السؤال يلج به في دوامة أمواج عاتية، ماذا لو لم توافق علي الزواج، نظرا لجمالها الأخاذ..

الإستاذ كريم، صادق مع نفسه دائما، لا يحملها، طاقة ما ليس له بها، يعرف أنه يفتقد الكثير من ثقته بنفسه،

وسيغرق في مرارة الغيرة، وطوال الوقت سيصيبه الريب والشك، تجاه أي شخص يقترب منها، ماذا لو تركته لأجل رجل وسيم مثلها، أو معه أموال أكثر منه!

أصوات رواد المقهي تتداخل مع صوت أصطكاك الملاعق مع أكواب وفناجيل الشاي والقهوة..

اخذ رشفة صغيرة من كوب الماء، كأنه يريد أن يزيح مرارة السؤال عن حلقه..

أشاح بوجهه بعيدا، ليلقي بعيناه ناحية، الفتاة السمراء ويفكر لنفسه: ماذا لو.. أخترت الفتاة السمراء؟

تنورتها القصيرة تقلقه، أنه يعرف نفسه جيدا، ليس عنده مشكلة مع التنورات..

التنورة ترتفع بقليل عن الركبة، ولكن أسرته تعود أصولها للصعيد، لن ترضي بذلك، وهو لا يريد الدخول في مشادات مع أحد..

ماذا لو.. طلب منها عدم ارتداء هذه الملابس، ولم توافق؟

ظل السؤال الذي يؤرقه دائما، ماذا لو...

سؤال يطرح الفرضية الغيبية، التي تضع الأنسان أمام الأختيارات المباشرة، ولن يتأكد أبدا من معرفة الأجابة..

لم يفهم أن هناك طريق واحد للتأكد!

.. للأسف لم يسلكه قط!

يخرج الإستاذ كريم من المقهي. بخطوات بطيئة، يرتكز علي عكاز رفيع، يكفي لمساندة جسده النحيل، ويذهب به، لشقته القريبة من المقهي، يشعر بوعكة صحية، اعتاد عليها مؤخرا..

يفتح باب شقته، الشقة التي ورثها من أبيه، قد تركها له بعد وفاته منذ زمن..

لم يغير شيء من أثاث الشقة..

أوي لفراشه.. وضع نظارته الطبية الكبيرة وساعته علي المخدة، كما كان يفعل أبيه.

لم يستيقظ هذا الصباح، فقد فارقت الروح جسده..

مـات.. علـي السـرير الـذي كـان ينـام عليـه وهـو طفـل رضيع، بجانب أبيه وأمه..

لم يطرأ عليه تغيير مهم، بعد خروجـه من المقهـي ذلك اليوم سوي نحافة لحقت بجسده، ومرور ثلاث وثلاثون عاما علي يوم المقهي الذي رأي فيه الفتاتين..

رقد علي سريره صامتا دون ملامح..

لم يترك شيء بعد موته يذكر، سوي عكاز عجوز، كان يتعكز عليها..

حتي العكاز لم يكن يخصه.. كان يخص أبيه.

❊ ❊ ❊

opelkan.com

أحضان وسماء..

قالت الطفلة الصغيرة

" أنا أكره الله! "

تلقت صفعة مجلجلة علي الوجه بعد جملتها، سال خيط كرامتها أحمر بكر من غشاء قلبها، زعقت بأعلى صوت لأمها :حسن جدا، الآن أصبحت أكرهه أكثر، كررتها مرتين..

كان ذلك بعد وفاة والدها المفأجي. مدت ذراعيها لتزيح سحب السماء حتي تسأله! زجروها.

obeikan.com

كبرت الطفلة وتغيرت جدران غرفتها للون أشد مرارة، نزعت كل الصور والكتب الدينية من جدران قلبها غيظا وتحديا، لم تبكِ أبدا، لن تظهر ضعف أمامه بعد الأن.

الأم، اخواتها كانوا يطاردونها، ويطالبونها بعدم طرح الأسئلة. الصلاة والشكر فقط.

مثل فريسة وقعت وحيدة في الشباك، الأم بتضاريسها الضخمة، وصوتها العالي، وشعرها المنحول، كانت تخيف الفتاة، تنزع منها أخر فرصة للتنفس، كانت الفتاة تهيم علي وجهها مع شروق الشمس وتعود مع عودته مرة أخري. ضاقت بالجميع، لم ترضخ لأحد، ترفع رأسها وتلومه.

جاء رجل الدين يقول:

- أخضعي حتي يسامحك

ردت عليه وعيونها تغلي..

- يجب أن أسامحه أولا..

طردت من منزلها بسبب كلامها، ونفيت خارج القلوب، لم تهتز..

نضج جسدها، ظهرت ثماره شهية للنظر، وكانت تعرف ذلك، جبينها لوح رخامي، شفتيها كوردة قرمزية تفتحت للتو، أنفها مثل أنف أمير روماني من العصور الوسطي، وقدها مثل مهرة عربية غير مروضة، وشعرها كجدائل ليل.

أستاجرت غرفة داخل فندق رخيص، غرفة صدئة مثل روحها، ينز من جدرانها سائل الرجال وعرق النساء، وبقايا النبيذ الرخيص

سرير كبير يأكل معظم مساحة الغرفة وكرسي واحد فقط!

غرفة بلا نوافذ..

وبعض الفئران تشاركها طعامها القليل.

بعد فترة وجدت طريقة للأنتقام..

ساومت علي شبابها الأخضر وباعته لكل من جاع وجاء يطلب خبز جسدها، خبزته بكل خبث وأنتقام للذكريات، تقدم طبقا شهيا للغرباء، كانت تطلب منهم الركوع أولا،

obeikan.com

يركعون تحت قدميها، ترفع رأسها للسماء، تضحك بصوت مرتفع حتي يسمعها!

حرثوا جسدها، جف قلبها، أدمنت العبيد، توسلاتهم،عبادتهم لها. خاطت الليالي ثوبا أسود لروحها.

مرت الشموس فوقها مرات كثيرة، وهي لا تبالي..

قالت لها امراة من زميلات المهنة - أمراة أكل علي جلدها الدهر وشرب:

- أنتبهي يافتاة، فبعد مرور بضع سنوات ستتشعرين بمن عاشرتهم يقيمون داخلك دون أن تدري، وتظهر ملامحهم علي وجهك!

يظهر شاب غريب القلب والهيئة..

يتتبع الفتاة أينما ذهبت، يحاول الاقتراب منها، تبتهج وتحضر بخورا للصنم الذي يتراءى لها في المرأة، ثمة عابد جديد في الطريق، جاء لتقديم القرابين، جاء يتذوق ثمار من حوض أرضها.

كان الشاب الغريب، مهندم الملبس، رائحته تشبه رائحة الياسمين التي أحبتها في صغرها. ملامحه البريئة أنعشتها، لم يأت أحد إليها بمثل هذه المواصفات من قبل.

داخل غرفتها :-

أزيز الذباب وصرير النمل، مواء القطط التي تجري تحت النافذة ونباح كلاب الليل الضالة، كل هذا بدا هادئا هذه الليلة، غير موجود. فقط رائحة ياسمين وبعض من بقايا شواء شريحة لحم وزجاجة نبيذ فارغة قابعة خلف الباب.

خلعت ثيابها مرة وأحدة، وكأن الثياب أنزلقت عن جسدها الناعم ، نظرت له ولم تتكلم بل كانت العيون تنطق.. في ليلة شتاء مظلمة والقمر متكاسل عن أداء عمله، تعال عانقني بقوة، أنشر دفئك في جسدي، اليوم سأوقف كل الحواس ماعدا حاسة اللمس، سافتح أبواب شهوتي لتغزوها بكل سرور، والمسني لمسة الخبير، فأنا أكره الهواة.

لكن هناك شيء يخفيه، قمره ليس بدرا وشمسه شديدة السطوع، تقابلا علي الارض المحرمة فزهد!

لم يأت ليمارس طقوس دينها! أبعد ثمارها عن فمه، جفلت وسقطت من مكانها، كيف يمكن لعبد جاء ليقدم فروض العبادة لها، أن يجدف عليها هكذا ويرفضها.

ركلته بقدميها، سألته عن سبب مجيئه، لم ينطق، صاحت: أنت شيخ جامع، أو قسيس، جئت لخلاصي، تطلب توبتي؟ أم راهب ضل طريقه بعيدا عن ديره، وفجاة تذكر نذر بتوليته، ويريد التراجع؟ لم ينطق أو يفصح عن هويته.

كان غامضا بالنسبة لها، ولكن مع ذلك تشعر بحنين خفي ناحيته..

قفزت من مكانها مغتاظة تريد الأنقضاض عليه، كم شعرت بأحساس الوجع الذي شعرت به قديما..

ولكنها مرة أخري تحجرت أمام هدوءه..

وأخيرا خرج عن جموده، وأخرج صورة مطوية داخل عروقه، وضعها أمام جسدها العاري، نور لمبة الغرفة تضيء أكثر وتركز ضوءها علي الصورة، تأملتها، كانت لها وهي طفلة بعمر العشر أعوام، وطفل صغير أكبر منها قليلا لم تنسه رغم مرور سنوات الوجع،

obeikan.com

تبنيت من ملامحه أنه من يقف أمامها الأن، حب حياتها، بملابس الكورال داخل المدرسة ومعهما أبيها وبراءتها، شعرت لأول مرة أنها عارية، حاولت التستر خلف ذراعيها.

تهاوت بمعبدها علي صدره، لم يدر أنه أشعل شمعة داخلها، أغمض عينيه، لثم جفنيها وجبينها، جدد وعوده رغم ضعفها، أخذها في حضنه، تكورت داخله، مثل جنين يتكون بين أضلاعه، جلست داخله بالساعات، جاء الصباح صافيا وشقشقة العصافير عالية، قالت له متذكرة الماضي: مجرد حضن منهم كان يكفي!

كررت جملتها مرتين وبكت بعدها.

❊ ❊ ❊

تكتكة الساعة

يعتقد أن حدود الأمان تتلخص في وضع الغطاء علي رأسه، وهو ممدد علي سريره الصغير، كان محقا تماما.

أنكمش كليا تحت الغطاء الأبيض، المزركش علي حوافه، يتخلله بعض الخطوط الزرقاء. ملمسه الناعم وثبات خيوطه يغريان الطفل الصغير للنوم، نام علي ظهره، تمطط وتكور تحت الغطاء. رفع رأسه لأعلي، رأي بقعة نور تتمدد وتتكون، من جوف ظلام محدود، علي شكل ظبية ، تنطلق علي قوائمها، بحرية، كانت جميلة ومجردة، لحد تشعر معها أن أرجلها تطير من الأرض قبل أن تلامسها، تنظر للطفل وتنتظره.

obeikandl.com

جسده يتمدد، قدماه تظهران هما والظبي من تحت الغطاء، الثقوب ظاهرة من كل جانب ، يكره المتطفلين، يحاولون التلصص، يتهامسون ويتضاحكون. لا يهتم، اليوم الذي كانت أمه تاخذ الغطاء لتغسله، الأشباح تلتف حوله، تكلمه، يهرب منهم، يسمع تكتكة الساعة المعلقة علي حائط هزيل، تفرش القلق بصدره، يدس رأسه في صدر اخوه الأكبر حتي طلوع الفجر، ذاق طعم الحضن، خاف أن يدمنه فرجع سريعا إلي غطاءه، الغطاء موجود دائما، أما ألأحضان.. تفارق.

تمر الأيام سريعاً...

يرتع من الحشائش والأشجار، يوما يجري وراء مهرة صهباء،يمتطيها، خدوده الممتلئه وجسده اللدن يتماوج عليها، يوما أخر يتلقي علي كفه قطرات الندي، يوما ثالث ينظر لفراشة متعددة الالوان، تتمايل علي كتفيه، وتطلب منه اللحاق بها، يلبي ندائها ويجري بها علي ظهرالمهرة في جوف الصحراء، كانوا الأربعة عرايا، هو، المهرة، الفراشة والشمس. يسمع صوتا جافا قادما من بعيد يقول:

- كيف يمكن له أن يستمتع بكل هذا الجمال هناك؟ ونحن هنا نقابل روث البشرية كل يوم، يجب أن نتصرف!

يضحك بخدوده الممتلئه و يعاود الجري والمرح. ذات يوم كان يتحرك بمفرده علي الشاطيء غير عابيء بالحقيقة.

رآها بأعينها الفيروزية وفستانها القرمزي المحازي لجسدها اللدن، الفستان يتسع عند القدمين بعد أن يمر بفتحة طويلة تظهر طول ساقيها، امراة تشبه التوت البري، شعر أنه يحلم، أو متمدد تحت غطاء ما، الشال الاخضر المربوط علي حافة رأسها ، يطلق شعرها الأسود، ينساب في الهواء ويتجمع مرة واحدة، كقنديل بحر ينفرط بأهدابه ثم يتجمع مرة أخري، تعود أن يراها كل يوم دون أن يتكلم معها. حاول كثيرا ولكنه خاف الصد والهجران، أغلق علي قلبه، وأكتفي بمشاهدتها من بعيد هو وظبيته، الي أن جاءت اللحظه التي بادرت وتقدمت خطوات اليه، شعر أن الأرض تهتز تحته، عيونها تكاد أن تبتلعه، وقبل أن تهمس له...

فجأة..

وأذ أياد تجره.. من تحت الغطاء، تظهر رجليه، يحاول التشبث بظبيته الصغيرة، تصرخ هي الاخري، تحاول مساعدته بفمها الصغير، ولكن لا تستطيع مواجهة القوة التي يجر بها، تخاف الفتاة وتبتعد، يحاول الرجوع إليها ولكن قوتهم ألجمته، أحرقوا الغطاء والظبية معها، لم

يحتمل العيش دون غطاءه، أفتقد حبيبته والظبية. أنتحي ركنا داخل الليل المدلهم بجانب كرسيه المتحرك!

وصوت تكتكة الساعة يوجع أذنيه.

بعد

ي

و

م

ي

ن

مات حزنا علي ظبيته وأشياء أخري..

عظام جسده بارزة، كأن شخصا أكل لحمه تحت الغطاء، عروقه الزرقاء تظهر جلية، كأسماك رفيعة من تحت جلد الماء، أخاه قال ونبرة احساس بالذنب تغالبه، عندما سأله الناس.. عمره واحد وخمسون عاما.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

عبد الله

[الجد]

كان الجد يجلس بعد العشاء مع أحفاده، علي ضوء لمبة جاز حديثة تتوسط مائدة خشبية مستديرة تعكس علي الطوب اللبن أضواء هزيلة تكفي لرؤية ملامح الوجوه، صورة حديثة لضابط أعتلي العرش ومعلقة علي الحائط اللبن.

الأحفاد الكبار وزوجاتهم يجلسون علي الأرض، الجد مرتدي جلباب أزرق مصنوع من قماش حلبي مطرز، جلباب لا يصلح لهذه المناسبة، كأنه مسافر لمكان ما،

obeikan.com

يستند علي عكاز قمحي اللون مصنوع من الأبنوس المطعم بالصدف الصغير، منحوت رأسه علي هيئة صقر.

يخبرهم عن بلاد الشام، الهند، تركستان ومدينة الحكمة، يفغرون أشداقهم، يضع أصابع يده المزدانه بخاتم فيروزي كبير، علي كتف عبد الله.. الجالس عند قدميه وأصغر أحفاده، ويجيب عن سؤال طرحه أحدهم قائلاً: الله يسكن فقط الأماكن المملوءة بالحب .

❊ ❊ ❊

[عبد الله]

كابن ضال ذهب بعيدا، خاتم جده الفيروزي في أصابعه يحتل جزءا من قلبه، تاقت نفسه الي ما وراء غرفته، منزله، قريته الصغيرة، أرتدي الرياح علي كتفيه، وتزود ببعض الموسيقي قبل بداية الرحلة.

obeikan.com

أراد الذهاب فيما مضي، الأصدقاء منعوه، والأخوة ترجوه ألا يذهب، تسربل بالطاعة، والنسيان، لكن حلم الرحلة يراوده، كعروس بحر تناجيه ليلا و نهارا، لم يستطع الصمود أمام شهوته للذهاب، أشتعلت الرغبة داخله، وفات الاوان علي أخمادها، كيف يمكن أن تخمد نارا لا تر.

الطريق ينساب بين أقدامه العارية كرمال ناعمة، تدغدغ أصابعه، تغرسه أكثر، تبعده عن أحبابه. خيوط رأسه الكثيفة تنمو في صمت ووجهه يماثلها، يصل لمنتصف الطريق، يخرج قلبه ويستعمله ناي.

تتجمع حوله طيور السمان، يسمع خالقه أحلي النغمات، تأت الملائكة تجالسه، تتلو عليه قواعد الصمت، تخبره لماذا تركت الامان وجئت غريبا، يرد:

لم تُخلق كل هذه الأرض وثنياتها، وأنا في بقعتي هناك أغرق بصورتي وأشياه صورتي.

يتغذي علي أثداء الصحراء، تحنو عليه وتطعمه. يحاذيه بعض الشك! ينفضه عن جبته ويكمل الطريق، تتحادث الملائكة فيما بينها، وهي تنظر اليه في صعودها: الفضول ملح الأرض .

رأي صقر يمر من فوقه بعيدا في السماء، تمن لو مد يده وطاله، تذكر حكايا جده عن الصقر

- الصقر ياولد رمز العزة والكرامة، لو نجح أحد في أصطياده، يموت

سريعا من القهر، وكمد حريته داخل القفص، اذ يري صياده وقاهره أمامه.

نخلة يمر من فوقها الصقر، تقف بينه وبين والبحر المتجه لمدينة الحكمة، رفعت تنورتها ووقفت علي كعبها ترقص أمامه، قائلة بتوجس وريبة: لو ذهبت لمدينة الحكمة، لن تعود كما كنت، أري نهاية من هنا لا تراها!

لم يعيرها أهتماما، أخذ بعض من تمرها ورحل..

رفعت تنورتها أكثر بعد أن رحل وقالت: الإنسان مولود العصيان.

بعد أيام كثيرة في البحر وسفن كثيرة تتحرك، كقدر لا طائل من التكلم معه. وصل لمشارف مدينة الحكمة، رياح ترطب القلب وحمائم ترحب به من كل وجه.

القبة الذهبية تتوسط المدينة تزرع داخله عبق الرهبة والتاريخ المجيد. الشمس تجمع أشعتها وتتفرق لمثلثات ذهبية تومض بين الظلال.

الطرق هادئة بالنهار، تبوح أسرارها بالليل، أثار قتلها عبر العصور لا يظهر بالعين المجردة. الشوارع العتيقة مرصوفة بأحجار كبيرة بيضاء، السور الذي يلف المدينة كأفعي تحاصره منتظرة بلعه في أي وقت تشابه الأرض، قطع كبيرة مربعة تراصت متساوية تساند بعضها، المصابيح الزيتية تعانقهم، أقترب أكثر من المشهد ولصق عينيه أكثر..

الرجال في جلبابهم الأبيض والشال الأحمر في أبيض يقف كتاج مائل علي رؤوسهم، أعين زائغة، وهمسات تضيع وسط أتربة المكان الكثيفة ونساء عجائز قليلة تتحرك بينهم، تتشح بالسواد كسراديب وجع مغلقة.

يتحركون في صف صغير موازي لحائط السور، يشق صفهم بين الفينة والأخري بعض الفتيان والفتيات الفرنجيات، يتضاحكون بأصوات صاخبة.

تراءت له أربعة أحياء ببواتها الضخمة.. حي الأرمن، حي النصاري، حي اليهود "المغاربة"، حي الأسلاميين. تحير وهمس بينه وبين نفسه:

أي الأحياء سيدخل لمدينة الله؟

وقت المغيب يهطل علي المدينة. الوجوم والوجوه الكالحة تسيطر علي المكان، يضطرب داخله؟

دار حول منها مرات عديدة! بني لنفسه خيمة خارج الأسوار، ولم يدخل المدينة.

❊ ❊ ❊

[الوقت الحاضر]

مرت سنون عديدة فوق أحدي وخمسون عاما، منذ جاء لمدينة الله، وألتحف الشيب والهزل بجسد عبدالله القابع في خيمته.

جاءه طفل خطه بداية الشباب، سأله: لماذا لم تدخل المدينة حتي الأن؟

obeikan.com

أنتصب عبدالله بصعوبة من موضعه وتحشرجت الحروف في فمه إلي أن خرجت سالمة ، وقال:

- أعتقد أنه لسببين.. لهما علاقة بما قاله لي الجد قديما.

ثم أبتسم أبتسامة شاحبة وأكمل بصوت أشد وهن :

- ولكني لم أعد أتذكرهما من كثرة سنين الأنتظار!

❊ ❊ ❊

openkan.com

عطوان اليهودي

يجتمع حولي، أحفادي وعائلتي الكبيرة..
أنام ممددا علي سرير المرض..
ممددا علي حافة الحياة..
أظن أنها الليلة الأخيرة، سنابل القمح تنادي، الورد الأزرق ينبت علي الكفين، والعيون قبل الغلق الأخير علي اتساع مداها.
ميزت بالكاد ظلالهم، قلت بصوت واهن:
أوصيكم هكذا..

obeikandl.com

أدفنوني عند أبوابكم، وأسقوني كل يوم، سأنبت من ترابي، شجرة جميز معمرة، سأعيش من خلالها، ولن أموت..
سأستبدل جسدي فقط..
كانت هذه الوصية أخر حروف جدي الحاج عطوان اليهودي، واليهودي لقب وليس اسمه أو هويته وترجع تسميته باليهودي إلي حادثة حدثت في صباه..

في أحد أيام شهر أمشير المطير، عندما أصطحبه والده وجدي الأكبر المعلم عطوة، الذي يعمل عربجي علي عربة كارو يجرها حمار مسكين، يلفحه المعلم عطوة ذو الانف المعكفوة والأسنان الصفراء بسياط ثقيل، وسباب كثير مصحوب برذاذ أكثر وصوت مبحوح. تتحرك عربة الكارو في حي وسط البلد، الذي كان يسمي قديما حي الأسماعيلية. كانت شوارعه هادئه حينها.

علي العربة، حمولة من كل شيء قديم، ينادي روبابيكيا، حيث كان يأخذها مقابل سعر زهيد، وكثير من الأحيان مجانا.

ذهبا يومها لشارع عدلي..

توقفت العربة أمام المعبد اليهودي الجديد الذي بناه اليهودي الشهير" يوسف القطاوي" عام ١٩٠٥، الذي

كـان يشـغل سـاعتها وزيـر الماليـة فـي مصـر، وأيضـا رئيس طائفة اليهود في مصر.

رفع الطفل عطوان رأسه للمبني وفغر فاه وهو يشاهد المعبد الأبيض من الخارج المكون من ثلاث طوابق، ويزينه علي الجدار المواجه للشارع، رسومات لأربع نخلات متجاورة، وعلي بعد منها نجمة داود الذهبية، ويافطة كبيرة موضوعة بحرية داخل هذا الزمان، مكتوب عليها "شعار مهاشايم" والذي يعني بالعربية أبواب الجنة، وهناك بعض الشجيرات التي تقبع امامه، سحبه والده بقوه وكأنه لاحظ أنبهاره، وأثناء استلام المعلم عطوة لأحد بقايا مخلفات المعبد من اوراق وحدايد غير مرحب بها هناك، أنسل عطوان لداخل للمعبد..

الأعمدة الرخامية المتراصة بجانب بعضها البعض، تقف منتصبة علي الجانبين، كجنود قدامي، تنتظر قائدهم، لتقدم فروض الطاعة والولاء..

النجف الساقط بخفة من خيوط عنكبوت عملاق، ينتشر في القاعة، وتدخل أشعة الشمس تسقط علي زجاج النوافذ الملون لتتكسر علي الجدران في شكل مثلثات من ظلال، ولا تزال زخارف النخيل موجودة بكثرة علي

الجدران، هناك فناء داخلي يحتوي علي مكتبة ضخمة من الكتب والمخطوطات..

أندس الطفل عطوان بين مجموعة من المصلين الجالسين علي كراسي سوداء، يشتم روائح يذوب لها أنفه، رائحة ياسمين، وقرنفل وغيرها من الروائح، وملابس فساتين وبلوزات لفتيات وسيدات مسنة يتحركون ببطء داخل المعبد، يطبعون شفاههم علي بعض الصور والمخطوطات الموجودة داخل القاعة، وأمامهم شيخ كبير ببدلة سوداء دون كرافتة ومغلقة أسفل ذقنه الطويلة البيضاء، وعلي رأسه غطاء يشبة طاقية دائرية بنفس لون البذلة، يقف علي منبر خشبي وأمامه كتاب كبير يقلب صفحاته بحرص شديد..

مال أحد الأفراد علي أذن الحاخام وهو ينظر ناحية الطفل الذي أرتعش بدوره في مكانه، وهو يختبيء خلف أحد الكراسي، أبتسم الحاخام أبتسامة خفيفة كشفت تجاعيده وعظام وجهه البارزة، وأشار للرجل الذي يخاطبه باشارة من يده، ثم اكمل الحاخام من خلف المنبر وعظته وقال:

- كان النبي إيليا يسير مع تلميذه إليشع، بجوار نهر الأردن، وحصلت زوبعة، ورياح شديدة، غطي إليشع وجهه وأحني رأسه في مواجهة الرياح

والأتربة، ولكن ظل النبي أيليا منتصب القامة شاخصا نحو السماء، إلي أن جاءت مركبة نارية بخيول وفرسان أخذته وارتفعت به ناحية السماء، تطلع تلميذه إليه مناديا عليه: ياأبي..

لكن ظلت المركبة ترتفع، وقبل أن تختفي، سقط رداء إيليا علي إليشع تلميذه..

أندمج عطوان بجميع حواسه وأنفاسه، وقد أخذته قصة النبي إيليا إلي أن وجد يد ثقيلة تنقض علي ظهره، وتأخذه بعيدا وهو يسمع صوت الحاخام الذي يضعف مع أتساع المسافة بينهم: إيليا النبي لم يطوله الموت بعد..

وصل لأبيه الذي فرغ للتو من تحميل بضاعته الذابله، رجع عطوان لحارته وحكي للجميع عن المعبد ، وقصة إيليا.. ضحك زملاءه عليه، ثم أطلقوا عليه أسم اليهودي من كثرة كلامه وحكاويه عن المعبد وإيليا الذي لم يمت..

يبدو أن قصة إيليا تغلغلت داخله بعيدا، أكثر من المتوقع، أحب عربة الكارو بعد أن كرهها في صغره، وأشتري مهرة بيضاء تتألق بجلدها في الشمس، وتلهب كل من يراها غيرة وحسدا..

كان يجري بالعربة والمهرة بأقصى سرعة، تضرب الريح وجهه، وأذيال ثيابه المهترئه تطير بفعل أندفاعه ناحية الشمس، تحسبه يطير علي الطريق..

يتوقف بعد أن تتعب المهرة.. ولا يتعب هو..

كبر عطوان اليهودي ولم يتزوج، كان يشاهد أخوته وهم يتزوجون وينجبون، ويخلدون ذكراهم في أجساد أطفالهم..وهو ينتظر السماء أن تخطفه، أن ترسل له مركبته النارية بخيولها وفرسانها..

لا يريد الموت..

يريد الخلود ..

يراقب كل شيء حوله، النبات، الحيوان، الناس، البيوت والعادات..

لا جديد..

الكل ي ذ ه ب

وهو كما طلب، لا يموت..

لا أحد يعرف بالضبط عمره - أعتقد أنه تخطي المئة عام - كان يسمع خبر وفاة أحدهم، يذهب مسرعا إليه،

تسنح له بضع لحظات منفردة مع جسد المتوفي، يتأمله، يهزه قليلا، يقترب من أذنه، يسأله: هل فارقت الحياة حقا؟

لم يجد الجواب أبدا...

أنشغل كثيرا بالثقافات الأخري، فكرة البعث والخلود عند الفراعنة، فكرة التحول لزمن وحياة أخري كما في ديانة الهندوس..

ولكنه في النهاية يعرف..

مات علي سريره.

وفي عينيه شغف المعرفة..

ذهبت أنا لمقبرته بعد أن تحلل جسده..

أخذت حفنة تراب من مقبرته..

ووضعتها علي سطح البيت الكبير كما أراد، سقطت فضلات العصافير عليها، ثم جائت ريح ونثرتها بعيدا...

❊ ❊ ❊

obeikan.com

السجين والصرصار

علي قارعة الطريق..
أمسكوه متلبسا، يسرق أشعة الشمس، ليعيد ظله علي الحيطان.

علي قارعة الطريق..
أمسكوه متلبسا، يمد ذراعيه للسماء، يقتطع جزءا من سحابة، يخبئها بقلبه، لتسقط مطرا، يسقي به عيناه التي جفت منها الأحلام.

علي قارعة الطريق..

obeikan.com

أمسكوه عاريا، يخلع أخر قطعة زيف عن جسده، يلقيها عليهم.

أخذوه " أزواج أمه ".. للسجن.

كتب علي جدران السجن :

" أمي..

تعري أمامي حتي أعرفك، جسدك طمي محرم، وأخوتي جوعي..

يوسف قد مات منذ قرون، والسبع سنوات العجاف لم تنته منك بعد.."

السجن، أرضيته تئن من الرطوبة، مجموعة جرائد قديمة تفترش الأرض متفرقة للتخفيف من برودته، والحوائط قاتمة بلون رمادي باهت، لمبة يرتجف نورها، تقبع حزينة بأحد الزوايا، مرتفعة قليلا ومعلقة بخشوع علي الحائط، يخرج من أضواءها ظلال وأشباح، سطل ينتحب في صمت بجانب الباب، يفوح منه رائحة نشادر كريهة، وشقوق صغيرة ما بين

obeikan.com

الأرضية الباردة والجدران، تدخل وتخرج منه الحشرات.

هسهسة المطر يسمعها، تخفق خارجا، وصفير الرياح عاليا، وهداة الليل لا تطوي عنفوان النجوم المشتعلة في السماء.

يضحك ويقول وهو ينظر للنجوم من فوهة نافذة صغيرة، كأنه يناجي اخوته:

من الذي شبه النجوم بالرقة والحب!

النجوم، شموس مشتعلة، لا يستطيع أحد الوصول إليها، ولا يستطيع أحد سرقتها من السماء، لحبيبة ساذجة تصدق هذا الهراء من الكلام.

النجوم تضيء الدرب في الظلام، لمن يأت ويكمل..

السجين يقبع في مكانه بهدوء، ينتظر بكل ثقة قدوم أمه لإنقاذه من يد السجان .

في أول أيامه داخل السجن، كان يخاف حشرات المكان، صرصار يتحرك ، بين شق وأخر، بلونه البني، يزحف

علـي أرجلـه الرفيعـة، ظهـره المفلطـح الهـش وشـاربه الطويل، حركته البطيئة المملـة، يتحرك فـي الوسط دون خوف أو أريب.

في أول أيام تعارفهما..

سحقه السجين بقدمه وهو ينتفض، يذهب للسطل، يفرغ ما في جوفه من سوائل بلون أصفر داكن داخلـه، يرجـع الصرصـار مـرة أخـري أمامـه فـي اليـوم التـالي، يصـنع السجين به ما فعله في اليوم السابق، ويذهب مرة أخري للســطل، وتتعــدد المــرات، فــلا الأيــام تنتهــي، ولا الصرصار يختفي ولا السطل يمتلئ..

خلال الليالي..

وأمام الصرصار..

تمر عليه نوبات صرع مع الأمل المختون..

نوبات تلقيه أرضا، تخرج الزبد من فمه..

تطحن عظامه، تأكل لحمه، وتعريه من اوهامه..

لم يعد يبحث عن ورقة توت تستره، ليس هناك ما يخبئه.

تعود وجود الصرصار، يأنس له، يبحث عنه أذا غاب، ويفرح لرؤيته، يشاركه خبزه الصدئ، ويحكي له عن أحلامه، واشتياقاته لأمه.

مرت السنوات ..

لم تأت الأم لرؤية أبنها..

خرجت روحه من الشرنقة الضيقة، وتحول لنجم في السماء..

يتطلع إليه الصرصار كل مساء من نافذة السجن، يخبره بأنه لاشيء تغير، ثم يسبه .. بأمه!

❊ ❊ ❊

opeikan.com

obeikan.com

الفهرس

إهداء ٥
مقدمة ٦
بيوت تفوح منها رائحة العرق ٧
أيام الجوع ١٤
أجوب الدنيا حافياً ٢١
ألا يوجد بالشيطان شيئا صالحاً ٢٨
الغرفة المغلقة ٣٣
الحمير لا تذهب بعيداً ٣٦
البيوت الطينية ٤٢
ماذا لو ٥٨
أحضان وسماء ٦٤
تكتكة الساعة ٧١
عبدالله ٧٥
عطوان اليهودي ٨٢
السجين والصرصار ٨٩

obeikan.com

obeikan.com